الاخلاق والاجتماع

تولستوي

مولده ونشأته ، المامه باللغات ، ملامحه وشكله ، اوصافه في طفولته ، يومياته ، موت والدته واخلاقها ، موت والده واخلاقه ، من كفله ، العمة القديسة ، تاتيانا ، حياة اللهو والمجون ، رأيه في النساء ، برنامج حياته ، سنوات ثلاث تصرف عبثاً ، كلمة عن رحلته ، احلامه ، خدمة الناس ، اول ما كتب ، خطاب رقيق لعمته العزيزة

مولده ونشأته

ولد عام ١٨٢٨ واما نشأته فكانت نشأة ابناء الطبقات العالية تعلم على اساتذة من الالمان والفرنسيين عهد اليهم بتربيته وتثقيفه .

المامه باللغات

وكان كمعظم الروسيين الذين من طبقته ملماً بلغات شتى . اما الانجليزية فلم يكن قد اتقنها كل الاتقان ؛ ولكنه كان يجيد الالمانية اجادة ، ويتقن الفرنسية اتقاناً تاماً . ويكفي ان تطلع على رسائله العديدة لعمته لتتأكد درجة نبوغه وتضلعه في هذه اللغة .

ملامحه وشكله

كان يتألم كثيراً من قبح شكله وقد اشتكى الله من ذلك مرة فكتب ما يلي :—

كانت تمر علي برهات يتملكني فيها اليأس واشعر بانه لا يمكن ان تتحقق لرجل مثلي سعادة !! وكيف اكون سعيداً وانفي عريضة وشفتاي غليظتان وعيناي صغيرتان !!

وقد كنت اتمنى ان يقوم الله بمعجزة فيخلقني من جديد ، ويصورني في صورة اجمل من صورتي !!

صفاته في طفولته

كان مجتهداً ، شاذاً صبوراً عواطفياً ، حساساً ، متكبراً ، جباناً ، متحفظاً في الحديث خجولاً ، وكان ما يضاعف خجله شعوره بقبح شكله !!

يومياته

وقد كان تولستوي حريصاً منذ صباه على تدوين كل ما يحدث له يومياً وبقي (٦٥) عاماً مثابراً عاكفاً على كتابة يومياته وقيل انها لو نشرت لملأت ٥٠ مجلداً ضخماً !! اليست ، بحق ، اوفى يوميات كتبها رجل في اي لغة من اللغات ؟!!

موت والدته واخلاقها

وقد وصف في يومياته موت والدته وقد توفيت سنة ١٨٣٠ وقد كانت على شيء كثير من العطف والحنان ، تركته وعمره اكثر من ثلاث سنوات بقليل ، وقيل انها توفيت وطفلها لا يزيد عمره عن الحول الا قليلاً

موت والده واخلاقه

ولم يذكر تولستوي في مذكراته شيئاً عن موت ابيه ، والمعروف انـه كان يميل للاستقلال الشخصي ، وعلى جانب عظيم من كرم الاخلاق ودماثة الطبع ، وعدم الميل لابهة العظمة ، ولم يعمر بعد مفارقة زوجته له غير ست سنوات قضاها ، ثم ترك طفله يتيماً وهو لم يبلغ بعد التاسعة من عمره .

فكان — بلا شك — لموت والديه وحرمانه من الرقابة العائلية اكبر اثر في حياته .

من كفله؟

وكفله بعض اقاربه وابرز شخصين العمة القديسة ، الكونتيس الكسندره اوستن ساكن ، وتاتيانا .

العمة القديسة

كانت واحدة تلك القديسة، وليس هناك من شك انها بذرت بذور الدين والفضيلة في نفس تولستوي فاصبحت واينعت عندما بلغ الخمسين من عمره، ويجمل بنا الآن ترك هذه القديسة حتى لا نأتي على شيء من تفاصيل حياتها ولا نريد ان نذكر الا ما كتبه تولستوي نفسه عنها فقال :

«اما عمتي فكانت قديسة حقيقية همها ان تقرأ عن حياة القديسين وان تتحدث مع زائري الاماكن المقدسة الذين لا يمكن وصفهم الا بـ [illegible] الحائرين» لافراطهم بل قل هوسهم الديني، كما انها كانت تتسامر مع النساك والرهبان.

ولم تكن عمتي محافظة على المظاهر الدينية فحسب، كالصوم الطويل، والصلاة الحارة، والاتصال بالقديسين ومعاشرتهم، بل عاشت محافظة على روح الدين، عاشت عيشة مسيحية طاهرة.

ولم تحرم نفسها من اسباب الترف والنعيم فحسب، بل قامت بما هو اشرف بكثير فقد كرست حياتها لخدمة الغير بما وهبها الله من قوة ومواهب. اما المال فما كان ليبقى في جيبها لانها كانت تعطيه لكل سائل!!

وقد حكى لي بعض الخدم انها مرة اثناء قيامها بالصلاة الصباحية في الفجر ابت الا ان تمشي على اطراف اصابع قدميها لكي لا تزعج خادمتها النائمة او توقظها.

ارأيت الآن نبل قلبها؟

كما انها ما كانت تأنف ان تقوم بما يقوم به الخدم في ذلك الوقت!؟

بل كانت متقشفة حتى في ملبسها ومأكلها!!

اليست هي القديسة؟!!

تاتيانا

اما تاتيانا فكان لها من التأثير والنفوذ ما يفوق نفوذ القديسة وتأثيرها. فقد كان نفوذاً اعمق وابقى لانه مبني على الحب. كانت تمت بصلة القرابة البعيدة جداً لتولستوي

وكانت تولي شؤونهم وتعوض عن الحنان والحب الكونت نيقولا والد تولستوي فطلب الزواج بها، ولكنها ضحت لكي تضحي للزوجة الثرية [illegible] [illegible]، وعاد فطلبها بعد ست سنوات على أن تكون أمًا لأولاده فرفضت الشطر الأول من طلبه، وقبلت أن تكون أمًا، فأرادت من وراء ذلك أن تبقى هذه العلاقة بينها وبينه علاقة شعرية طاهرة واحتضنت العمة [illegible] الوصية الشرعية للأطفال الأيتام الأربعة تولستوي وإخوته الثلاثة.

وظلت العمة [illegible] الوصية الحارسة على الأطفال الثلاثة، وكان أول معرفة تولستوي بها عندما كانت في الأربعين من عمرها ولم يكن يذكر [illegible] جمالها أول [illegible] كان يثير من الإعجاب عينيها السوداوين [illegible] والمبتسمة [illegible] الصغيرتين.

وقد كتب تولستوي عنها فقال: إنها [illegible] لم تكن [illegible] في الواقع، [illegible] حلوة [illegible] ولكنها [illegible] [illegible] كانت ملامحها [illegible] جدًا بدرجة لا أتذكرها ولكنها [illegible] في نفوسنا الحب الأول لها وحبها لنا.

وأتذكر يومًا وعمتي [illegible] كنت في الخامسة من عمري، وكنا في حجرة الاستقبال فلما كان بيني الآن أمسكت بيدها وقبلتها لأظهر لها حبي الجم، فكان لها الأثر عظيم في، وحسبتها شعرت منذ صغري بلذة الحب الأول ولم يحملني ذلك إلى الكلام، وكنى [illegible] [illegible] [illegible] بالحب!! فقد رأيت وشعرت كيف كانت تحب وتمنح القلب الحب، وقد كان هذا أول درس تلقيته منها، الدرس الذي علمني لذة الحياة الحالمة.

حياة اللهو والمجون

ورغم من أنه شكلًا وخلقًا كان يميل لحياة الفلاحة والعون ويكثر من زيارة على المراقص والاشتغال في السامر وقصد المزارع والملاعب، وعندما بلغ التاسعة عشرة [illegible] زيارة الدور السيئة السمعة وقد أملى يكتب من تلك الحقبة عن المرأة.

رأيه في النساء

وقد كتب في تلك الحقبة يقول: «يجب أن تعتبر عشرة النساء ضرورة اجتماعية

« غير ضارة » !! ويجب ان نبتعد عنهن كلما امكننا ذلك !! فمنهن نتعلم بلا جدال الشهوانية والتخنيث والاستخفاف بكل شيء !! ولكن . لاهن افقدنا خصائصنا الفطرية كالشجاعة والحزم والتعقل .

والنساء اكثر قابلية للاخذ والاقتباس من الرجال في بعض العصور « الطاهرة » كن افضل من الرجال . ولكن في عصرنا الحاضر عصر الشر والفساد هن بلا شك اردأ من الرجال !

برنامج حياته

وقد وضع تولستوي لنفسه برنامجا صعبا بل يكاد يكون مستحيلا وابى الا ان ينفذه مهما كلفه من مشقة ومهما صادفه من صعوبة .

ويكفي ان نمر عليه مرة ليتأكد القارئ مبلغ صعوبته بل ليتحقق استحالته .

اراد تولستوي ان يدرس القانون درساً وافياً شاملا واراد ان يدرس الطب من ناحيته العملية وان امكن من ناحيته النظرية ايضاً

واراد ان يتبحر في اللغات الفرنسية والروسية والايطالية واللاتينية واراد ان يدرس علم الزراعة درساً وافياً نظرياً وعملياً واراد ان يتفقه في علمي التاريخ والجغرافيا وفن الاحصائيات وان يدرس العلوم الرياضية وان يعرف شيئاً من العلوم الطبيعية وان يتقن الموسيقى لاكبر درجة ممكنة وفوق ذلك اراد ان يكتب الفصول الضافية في الموضوعات التي يقرأ عنها

اسمعت عن برنامج اعقد واطول من هذا البرنامج ؟؟

حياته بعد خروجه من الجامعة

وقبل ان يترك تولستوي الجامعة ابى الا ان ينفض يديه من كل المعتقدات التي كان يعتقدها والطقوس الدينية التي كان يمارسها وقد ابتدأ يدرس الفلسفة وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره . وانقطع عن الذهاب للكنيسة في السادسة عشر

وقد صرح انه ما كان يؤمن بما كان يتلقنه في طفولته من التعاليم ولكنه كان

يؤمن بوجود الله عزّ وجل وان كان لا يعلم ما هو الله ؟ ولم يكن ينكر المسيح ولا تعاليمه السامية :

الكمال !!

وكان جل همه السعي وراء الكمال

الكمال «عقلياً» بدرس كل ما امكنه درسه من شتى العلوم

الكمال «ادبياً» بسيره بموجب قوانين صارمة وضعها لنفسه

الكمال «بدنياً» بالتمرن على انواع متعددة من الرياضة التي تبعث على النشاط وتقوي الجسم وتمرن الاعضاء ثم انه درب نفسه على الاحتمال والصبر وكل انواع الحرمان . وهو لا يبغي من وراء كل ذلك الا ان يكون كاملاً لا في نظره فحسب ولا في نظر الله بل في نظر الناس وبرهان ما يبذل من جهوده هذه الرغبة الاكيدة في الانتصار على سواه والغلبة عليهم

سنوات ثلاث تصرف عبثاً

من ١٨٤٨ — ١٨٥١

ولا يجمل بنا ان نختم الفصل الاول من تاريخ حياة تولستوي قبل ان نأتي على شيء من اخبار هذه السنوات الثلاث التي صرفها تولستوي عبثاً فقد عاش عيشة فاسدة منغمساً في انواع الترف والملاذ ، وكان على وشك ان يجعل حياته مثل اخوته : ويكفي ان نذكر طرفاً من حياتهم ليفهم القارئ ان اخوة تولستوي ما كانوا ليشرفوا بحياتهم الفاسدة اخاهم الاصغر

فالاخ الاكبر (نيقولا) رغم اعترافنا بمواهبه النادرة عاش عيشة الانهماك في السكر ومات مسلولاً قبل ان يترك له اثراً ما ؛ وقد كان ضابطاً في الجيش في بلاد القوقاز

واما اخوه الثاني (سرجيس) فقد كانت حياته حياة الاثم وكان يعاشر الساقطات وتزوج من واحدة منهن

واما الاخ الثالث ديمتري فقد كان مدمناً كالاخ الاكبر ومات مسلولا

مثله نتيجة انغماسه في الذات والمفاسد

كلمة عن رحلته

قصد تولستوي الجنوب ليجتمع بأخيه نيقولا الذي كان ضابطاً في الجيش في ذلك الوقت ولم يكن يطمع تولستوي من وراء هذا السفر الا ان يقوم برحلة جديدة وان يتمتع بمشاهدة مناظر جديدة وان يتخلص من دائنيه ومن عبء ديونه الثقيلة ولكنه فكر بعد ذلك ان ينخرط في سلك الجندية وقد كانت الخدمة في الجيش الوظيفة الوحيدة المفتوحة امامه والتي يمكنه ان يعمل فيها وقد ظهر له كل شيء بهياً جذاباً وكان مغرماً على الاكثر بحياة سكان الجبال الحرة والمناظر الطبيعية البديعة وجمال القوقاس وكثيراً ما فكر ان يقضي كل حياته الباقية ويبني له كوخاً صغيراً ويتزوج من قروية قوقازية ويعيش مع العرائين كما فيخرج معه للصيد والقنص . وكان يسأل نفسه مراراً لماذا لا افعل ذلك ؟ وما الذي يمنعني ؟ ولكنه كان يسمع هاتفاً يقول « انتظر تريث لا تتسرع . لا تجزع » وكان مازال لا يود من صميم فؤاده ان يعيش عيشة روز كا ولو كان كما قال كان يشعر ان هناك سعادة لا يمكن يصل اليها عن طريق هذه الحياة فما زال يشعر ان السعادة لا تكون الا بطلب التضحية وانكار الذات ! فكان لذلك ينتهز كل فرصة سانحة ليضحي ويقدم لغيره خدمة صادقة .

وكان يشعر شعوراً داخلياً انه لا يمكن ان يعيش عيشة بادية كبقية الناس ؛ وكان يسائل نفسه كثيراً « كيف لا احب الان الجيش لانعم بالسعادة الحقيقية ؟! ولماذا ! شعر بهذه السعادة في السنين السابقة ؟! ثم اخذ يفكر في حياته السابقة الملوثة بالاثم والعار ؛ وكان يخجل من نفسه اشد الخجل لانغماسه في حياة الفجور والشر ثم كان يفيق من احلامه ويثنيه فيقول لنفسه « السعادة ؟ ان السعادة في تكريس الحياة لخدمة الناس » هذا امر واضح جلي ؛ كيف لم افهمه من قبل ؛ وكيف لا يفهمه الناس جميعاً ؟ انا نطلب السعادة ؛ وكيف نتوصل هذه السعادة ولكننا لا نريد ان نسلك الطريق الموصل اليها ؛ ثم نشكو ونتذمر لاننا لا نتمتع بها ؛ هناك جهل اطبق من هذا الجهل ؟ هناك شعور داخلي في كل منا يدفعنا لطلب السعادة وعلى ذلك

فالسعادة شيء حلال شرعي . ولكننا اذا كنا نحاول ان نصل اليها عن طريق محبة [illegible] يجري وراء الثروة لنفعنا الشخصي والشهرة وحياة الترف بالرفاهية والحب فلا يمكن ان نصل اليها مطلقا فان [illegible] غير حلال وان كان طلب السعادة في ذاته شرعي .

وكانت تظهر عليه دلائل الانشراح كأنه وصل الى حقيقة جديدة لم يصل اليها احد من ذي قبل . ثم اخذ يكلم نفسه قائلا نعم لا احتاج لشيء [illegible] الا كأس حياتي [illegible] ! !

اول ما كتب

وكان اول ما كتب [illegible] قصة الى مجلة شهرية جديدة يحررها شاعر يسمى Nekrasof [illegible] وقد نشرت [illegible] سنة ١٨٤٦ واسم المجلة Contemporary ولكن صاحب المجلة [illegible] ولكنه كتب له [illegible] وارسلت [illegible] الحالية [illegible] صفحة [illegible] الاولى

خطاب أمينة

وهاك موجزاً للخطابات التي كان يكتبها [illegible]

[illegible] كنت [illegible] قلبي [illegible]

[illegible] كثيرا [illegible] حتى [illegible] هذه [illegible] الحارة .

[illegible] واسى [illegible] كنت [illegible] التي ملأت قلبي [illegible] وكنت [illegible] ولكن [illegible] الاسف [illegible] التي كنت [illegible] ان اغلب على عواطفي واردد على مشورتك [illegible] طول حياتي [illegible] ان [illegible] عن [illegible]

قلبي في هذه الدقيقة وعن تأثير خطابك في نفسي هـذا التأثير العميق، والافكار الكثيرة التي تعالجني وتملأ مخيلتي . لقد ذكرت انك عازمة على تركي وانك تسألين الله ان يضع حدا لحياتك ويختم هذا الفصل، تعتقدين ان حياتك اصبحت لا تكاد تحتمل واصبحت وحيدة سامحيني عمتي العزيزة واذا صرحت لك انك قد اغضبت الله واغضبت تولستوي الذي يحبك من اعماق قلبه تطلبين من الله ان يخلصك من هذه الحياة بمعنى آخر تطلبين «الموت»

اي تطلبين ان تحل بي اعظم كارثة يمكن ان تحل بي في كل حياتي يعلم الله ان اعظم كارثتين يمكن ان يجرحا قلبي ويدملاه فراقك وفراق نيقولا فأنتما الشخصان الوحيدان اللذان احبهما من اعماق قلبي ولا احب احداً اكثر منهما . ماذا بقي لي لله لو سمع صلاتك؟؟

لقد كنت اسعى واحاول ان اصل الى الكمال لارضيك

لقد كنت اسعى واحاول ان اتحلى بكل الصفات السامية لاحوز رضاك وعطفك

لقد كنت دائما اشعر بالسعادة اذا كان من ورائها سعادتك وبالهناء اذا كنا متفقة سوية .

كنت اخاف ان ارتكب شيئاً يغضبك ويسوءك . محبتك هي كل شيء لي ..

ابعد ذلك تطلبين من الله ان يفجعني بالموت؟ ..

لا استطيع ان اصف لك ما اشعر به الآن من نحوك . فالكلمات لا تكفي لتصوير ما يكنه فؤادي من الحب ولكنني اخاف لئلا تقولين اني اتألم .. ومع ذلك فاني ابكي وابكي واقبل خطابي الذي ارسلته لك بالدموع ...

يتبع　　　　كامل صموئيل مسيحة